(١)

العدل وأثره في استقرار المجتمع

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ، **وبعد**:

فقد عني الإسلام بالقيم والأخلاق عناية بالغة، فربط بينها وبين العقيدة والشريعة، وأكد أن صلاح الأمم والمجتمعات بالأخلاق الحسنة، والقيم النبيلة؛ لذا قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ مِن أحَبِّكُم إِليَّ وأَقربِكُم مِنِّي مجلسًا يومَ القيامَة أَحاسِنكم أخلاقا)، فبالأخلاق الحسنة تبنى الأمم والحضارات، وتقوم الدول والمجتمعات ، وترتفع راياتها، ويعلو شأنها، والأمم التي لا تقوم على الأخلاق السوية تحمل عوامل سقوطها في أصل بنيانها.

ومن الأخلاق التي عني الإسلام بها خلق العدل، وهو صفة من صفات الله تعالى، أقام به السموات والأرض، وقد قالوا: إنّ العدل ميزان الله الّذي وضعه للخلق، ونصبه للحقّ فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، وهو قيمة إنسانية وحضارية دعت إليها جميع الشرائع السماوية ، قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}، وقال تعالى مخاطبًا داود (عليه السلام):{يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}، وأمر الله (عز وجل) به نبينا (صلى الله عليه وسلم)، فقال تعالى: {فَلِذَلِكَ

فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ...}؛ لذا كان (صلى الله عليه وسلم) يأمر أصحابه وأتباعه بالعدل، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) أن رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (إِذَا حَكَمْتُمْ فَاعْدِلُوا ، وَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ).

والعدل: هو إعطاء كل ذي حقٍ حقه من الأقوال والأفعال، والحقوق والواجبات دون تفرقةٍ بين دين ودين، أو جنس وجنس، أو لون ولون، ودون محاباة لأحدٍ على حساب أحد، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، وقال تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.

ولقد رسَّخ الإسلام قيمة العدل بين سائر البشر ، ليشمل كل طبقات المجتمع دون تمييز أو انحياز ؛ لأنه أساس الملك ، وطريق سعادة الأمم ، وسر أمنها واستقرارها ، وسبب بقائها ودوامها ؛ ولهذا قيل: (إنّ اللهَ ينصرُ الدولةَ العادلةَ ولو كانتْ كافرةً، ويخذُلُ الدولةَ الظالمةَ ولو كانتْ مسلمةً) ، وقد جعل نبينا (صلى الله عليه وسلم) الإمام العادل في مكانة عالية، ومنزلة سامية يوم القيامة في مقدمة السبعة الذين يظلهم الله (عزّ وجلّ) في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فبعدله ينصلح المجتمع كله، وبظلمه يفسد المجتمع ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ...)، غير أن الإسلام جعل إقامة العدل وتحقيقه مسئولية مشتركة بين الحاكم والرعية ، من خلال التزام كل إنسانٍ بالقيام بمسئوليته ، فإن

المسئولية في تحقيق العدالة تقع على كل من ولاه الله أمر مجموعة من الناس في أي مجال من المجالات، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنه سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ...)، فإذا ما التزم كل مسئول مسئوليته التي ولّاه الله (عز وجل) عليها تحقق العدل، وُحفظت الحقوق ، واستقر المجتمع ، وفي ضوء هذا الحديث يتبين لنا أن للعدل صورًا ومجالات متعددة أحاطت بجميع مناحي الحياة ، منها : **عدل الرجل في بيته** ، بحسن معاملته لزوجته، ومعرفة حقها، وأداء هذا الحق من نفسه، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} ، وكذلك عدله بين أبنائه، وعدم التفرقة بينهم في المعاملات المادية والمعنوية ؛ لأن ذلك يجلب الشقاق ويزرع الحقد والغل والحسد والكراهية بينهم، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رضي الله عنه) قَالَ: تَصَدَّقَ عَلَيَّ أَبِي بِبَعْضِ مَالِهِ، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ : لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَانْطَلَقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِيُشْهِدَهُ عَلَى صَدَقَتِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟). قَالَ: لَا ، قَالَ: (اتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ)، فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ)، وكذلك عدل المرأة في بيت زوجها، بحسن معاملة زوجها ، والعدل بين أبنائها ، والوفاء بحق أسرتها عليها.

كذلك من صور العدل ومجالاته: **عدل كل مسئول في نطاق مسئوليته**، فعلى كل مسئول أن يتقي الله (عز وجل) في نطاق مسئوليته، فلا يحابي أحدًا، ولا يجامل

أحدًا، ويعامل مرؤوسيه كلهم بميزان العدل ، وعليه أن يضع المصلحة العليا للوطن نصب عينيه، وليحافظ على مقدرات الوطن وثرواته ، وليعلم أن الله (عزّ وجلّ) سائله عن كل ذلك ، فعن أنس (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟).

ومنها: **عدل الإنسان مع نفسه** ، ويكون ذلك بعدم إيرادها موارد التهلكة، بارتكاب الفواحش والمنكرات، أو الغلو في ممارسة الشعائر والعبادات...إلخ ، قال تعالى:{وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}.

ومنها: **عدل الإنسان مع غيره**، وهذا له عدة صور ، منها : **العدل بين المتخاصمين** ، في القضاء ، والشهادة ونحوهما ، بدون تمييز أحدٍ على حساب أحد ، وبدون محاباة لأحدٍ دون أحد ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}.

وحينما سرقت المرأة المخزومية وأهم قريشًا شأنُها ، فكلموا أسامة بن زيد (رضي الله عنه) ليكلم فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فكلمه، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا).

وهذا سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) عندما تولى الخلافة خطب في الناس فقال : " أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، القوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ

الحق منه ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أخذ الحق له"، وكتب سيدنا عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري (رضي الله عنهما) رسالة هامة ، جاء فيها : " آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ ، الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ".

ومنها: **العدل في المعاملات المادية** حتى يستوفي الناس حقهم في البيع والشراء، قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}، ومن صوره : العدل في كتابة الدين ، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ...}، وكذلك من العدل أداء الحقوق إلى أصحابها دون مماطلةٍ ، ففي الحديث أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ) .

ألا فما أعظمه من دين ، وما أعرقها من حضارة عرفتها البشرية ؛ تلك التي يظلل العدل فيها كل أطياف المجتمع ، فلقد سادت في حضارة الإسلام ودولته على مرّ تاريخها وعبر مراحلها المختلفة مفاهيم تهدف إلى القضاء على كل نظم الظلم والاستبداد والتعسف، والاضطهاد ؛ رفعًا لكرامة الإنسان بغض النظر عن لونه أو جنسه انطلاقًا من قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أخوة الإسلام:

إن من أهم صور العدل التي ينبغي تحقيقها في العصر الحديث ، تحقيق العدل الإداري بين المرؤوسين ، وتحقيق العدل في تقديم الخدمات للمتعاملين في كل المؤسسات ، ووضع الضوابط الواضحة والحاسمة والصارمة والشفافة والدقيقة ، حتى نصل إلى تحقيق الرضا المجتمعي العام ، وقوة الإيمان بالدولة ، وتعميق الولاء والانتماء لها ، وذلك أن الإقصاء الإداري بلا سبب حقيقي واضح ومعلوم يؤدي إلى السخط والاحتقان ، أما الظلم فهو محض ظلمات ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَلاَ تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ}، ويقول سبحانه:{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتّخَذْتُ مَعَ الرّسُولِ سَبِيلاً * يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً}.

فالعدل نور لصاحبه في الدنيا والآخرة ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، وقد نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الظلم بجميع أنواعه ، وحذّر من دعوة المظلوم، فقال (صلى الله عليه وسلم) لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه) حين بعثه إلى اليمن: (...وَاتّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ).

وكان الإمام الماورديّ (رحمه الله) يقول: إنّ ممّا تصلح به حال الدّنيا قاعدة العدل الشّامل ، الّذي يدعو إلى الألفة ، ويبعث على الطّاعة ، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النّسل، ويأمن به السّلطان .

فاللهم جمّلنا بالعدل، واجعلنا من القائمين به، وجنبنا الظلم وأهله .